الفصل الثالث

يعقـــوب وجـــلد الجـــدى

أو الميـــــلاد الجـــديد

١ ــ البركة المحـــولة :

فى الفصل السابق التمسنا سببا لافتراضنا أن يعقوب بوصفه الابن الأصغر لاسحق ، كانت له الأولوية فى ظل العادة القديمة ، فى المطالبة بحقه فى ارث أبيه اسحق ، وأن التحايل الذى قام به بقصـــد حرمان أخيه « عيسو » من حقه فى الارث ، لم يكن سوى محـــاولات من جانب المؤرخ بهدف تفسير عادة تفضيل الابن الأصغر على الابن الاكبر فى الارث ، تلك العادة التى كانت قد هجرت قبل عصره بزمن طويل ، وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب • وفى ضوء هذه النتيجة ، فاننى أرى أن نتدبر فى هذا الفصل ، الخدعة التى قام بها « يعقوب » متواطئا مع أمه « رفقة » ، بهدف خداع أبيه لكى يحول تركته من أخيه اليه ، حيث اننى أعتقد أن هذه الحكاية تتضمن بقايا طقوس قديمة كانت تتبع عندما حلت عادة حق الابن الاكبر فى الارث محل عادة حق الابن الاصغر ، وذلك بقصد تعيين الابن الاصغر خلفا لأبيه بدلا من أخيه الاكبر • فبعد أن دعمت عادة حق الابن الاكبر فى الأرث ، بوصفها قانونا للأرث ، كان التجاوز عن هذه العادة يعـــــد نقضا لعادة متوارثة لا يكون فاعلها فى حـــل منها الا باتبـــاع بعض الشكليات الغريبـــة التى كان الغرض منهـــا تغيير نظام الارث بين الأخوين ، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الاخطار التى يمكن أن

يتعرض لها بسبب أقصائه أخاه الأكبر من حقه فى الأرث • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن يعقوب قد قام بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من ارثه لأبيه • وذلك لأنه اذا كانت عادة حق الابن الاصغر لاتزال رائجة كل الرواج فى عصره ، فانه كان يعد الوريث الشرعى لأبيه ، ولم يكن فى حاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التىمنحها لكونه أصغر اخوته • ولكن عندما حلت عادة حق الابن الأكبر فى الأرث محل عادة حق الابن الأصغر فى عصره متأخرا ، فربما رأى مؤرخ حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التى كانت تتبع فى زمن المؤرخ بين الحين والآخر ، بهدف التصديق القانونى على تفضيل الابن الأصغر فى الارث • وربما كان قد غاب عن الكاتب الذى سجل حياة يعقوب فى زمن متأخر ، المغزى الشرعى لهذه الشعائر ، ذلك لأنها لم تكن مألوفة لديه ، فقدمها بوصفها مجرد خدعة ماكرة احتال بها يعقوب متواطئا مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له • ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين فى هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والتشوية وفقا لهذا الغرض الذى افترضناه •

وأود أن ألفت نظر القارىء الى نقطتين فى حكاية سفر التكوين ، أولاهما اقصاء الابن الأصغر لأخيه الأكبر ، وثانيهما الوسيلة التى اتبعها فى سبيل تحقيق غرضه • فقد تظاهر يعقوب لوالده بأنه أخوه الأكبر ، وذلك بأن ارتدى ملابس أخيه وبأن غطى يديه ورقبته بجلد جدى لكى يصطنع ملمس جلد أخيه الذى يكسوه الشعر • وقد قام بهذا الفعل بدافع التحريض من أمه التى ساعدته فى القيام بهذا العمل الزائف ، بأن ألبسته ملابس أخيه من ناحية ، وغطت يديه ورقبته بجلد جدى من ناحية أخرى ، وبذلك نجح يعقوب فى تحويل بركة أبيه اليه ، تلك البركة التى كان مقصودا بها أخوه ، وبذلك أصبح خليفة لأبيه • ومن المحتمل أن هذه القصة تحتوى على بقايا شعائر قانونية كانت تتبع عندما يصبح الابن الأصغر خليفة شرعيا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر •

٢ ـ تقديم الجلد ضحية فى الشعائر :

هناك بعض القبائل فى افريقيا تتشـــابه عاداتها مـــع عادات الساميين فى بعض جوانبها الغربية ، وربما ساعدت على اســـتجلائها وتفسيرها • ذلك أن هذه القبائل الافريقية قد تخلفت عن الشعوب السامية فى مجرى التطور الاجتماعى البطىء ، ومن ثم فقد احتفظت فى وضوح بطابع عادات بدائية محددة ، فى الوقت الذى انقرضت فيه هذه العادات فى كثير أو قليل وبليت بتأثير زحف المدنية • وهذه القبائل تسكن فيما يسمى بالقرن الافريقى الشرقى ، أى أنها تنتشر على وجه التقريب بين الحبشة وخليج عدن شمالا ، وجبل « كليمانجارو » وبحيرة فكتوريا نيانزا جنوبا • ولا تنتمى هذه القبائل الى مجموعة القبـــائل الزنجية الخاصة التى تتحدد اقامتها فى افريقيا الغربية ، كما أنهـــا لا تنتمى الى مجموعة قبائل البانتو التى تحل بشكل عام بقاع افريقيا الجنوبية جميعها ، من خط الاستواء الى رأس « الرجاء الصالح » • حقا ان بينهم قبائل ، مثل قبيلتى « أكامبا » و « وكيكويو » اللتين تتحدثان اللغات البانتوية ، وربما انتمت أصلا الى مجموعة قائل البانتو • ولكن حتى هذه القبائل ربما ساورنا الشك فى مدى انتمائها لمجموعة قبـــائل البانتو ، وفى مدى التغير الذى طرأ عليها نتيجة اختلاطها أو احتكاكها بعنصر غريب عنها • وفى العموم فان العنصر المسيطر فى هذا الجزء من افريقيا هو ما يطلق عليه العلماء الاثنولوجيون اســـم الأثيوبيين ، وأخلص عنصر فى هؤلاء فيما يبدو ، هم الجاليون • كما يبدو أن قبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » فى محمية أوغندا والتى تنتسب اليها فيما يقال ، الأسر الملكية فى « أوغندا » و « أونيورو » و « كراجوى » ، يبدو أنها كانت تكون القاعدة الأمامية التى تقـــع فى الغرب • ومن بين القبائل الأخرى التى تنتمى الى هذه الأسرة وربما أشهرها ، قبيلتا ماساى وناندى اللتان تربط بينهما صلة قرابة • ولحسن الحظ أننا نملك بحثين قيمين عن هاتين القبيلتين ، كتبهما لنـــا الباحث الاثنولوجى « أ • س • هوليس » • ففيمـــا يختص بعـــلاقة هاتين

القبيلتين بالجاليين كتب تقول : « لست أعتقد أن الدور الذى لعبه الجاليون فى تكوين قبيلة « ماساى » وقبيلة « نانادى لومبو » وغيرهما من القبائل مثل قبيلة « باهيما » التى تسكن أوغندا ، كان دورا فعالا ، أو أن هذا التكوين كان له أثر فى الزمن الماضى • وكثيرا ما يشار الى تأثير الأجداد الجاليين على هذه القبائل فى المظهر الفيزيائى وفى دينها وعاداتها ، كما يشار اليه بصورة أقل فى لغات كثير من القبائل » • ولا يفصل موطن الجاليين فى افريقيا عن شبه جزيرة العرب ، مهد الجنس السامى ، سوى بحر ضيق ، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الموطنين وهذين الشعبين لابد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة • ومن ثم فانه ليس غريبا ، كما قد يبدو لأول وهلة ، أن نجد تشابها بين العادات السامية والعادات الاثيوبية • حقا ان الصيحة من فوق جبل زيون لم تكن لتصل الى جبل كليمنجرو نظرا لبعد المسافة فيما بينهم ، ولكنها ربما كانت تصل خلال محطات كانت تقع فيما بينهما على طول شواطىء افريقيا وشبه جزيرة العرب • على أننى لا أهدف من قولى هذا أن أقدم رأيا حول مسألة ما اذا كانت وجوه التشابه بين العادات الأثيوبية والسامية تفسر بأن هذه العادات مستمدة من أصل واحد ، أو أنها ترجع الى تأثير أحداث متشابهة تركت تأثيرها مستقلا على عقول الأجناس المختلفة ، وانما أهدف فحسب الى اثارة افتراض أصل واحد لهذه الاجناس ليس من السهل تجاهله •

وبعد هذه المقدمة المسهبة التى تحصننى ضد الشكوك التى يمكن أن تثار حول بحثى عن وجوه التشابه بين عادات جنسين عبر مسافة زمنية غير معقولة ، أدلى الآن ببعض الحقائق التى تشير الى مراسيم شرعية قديمة تتضمن قصة خداع يعقوب لأبيه •

فمن المألوف عند الجاليين أن يتبنى زوجان عاقران أطفالا • ويربط نظام التبنى الزوجين بالأبناء المتبنين برباط قوى ، الى درجة أنه اذا أنجب هذان الزوجان أولادا بعد ذلك ، فان الابن المتبنى يحتفظ لنفسه

بحقوق الابن الأصلى الأول كاملة • وتجرى الشعائر التالية عند انتقال الطفل من عند أبويه الشرعيين الى أبويه اللذين يرغبان فى تبنيه • فاذا كان هذا الطفل يبلغ من العمر حوالى ثلاث سنوات ، يؤخذ من حضن أمه ويحمل الى غابة حيث يتخلى أبوه الأصلى من خلال اجراءات صورية عن حقه كاملا فى بنوته لابنه ، وذلك بأن يعلن أن ابنه يعد منذ تلك اللحظة ميتا بالنسبة له • وعند ذاك يذبح ثور ، وتطلى جبهة الصبى بدمه كما يوضع جزء من شحمه حول رقبته ، وتغطى يداه بقطعة من جلده • وهنا تتضح وجوه التشابه بين هذه الشعائر وبين الاجراءات التى قام بها يعقوب لخداع أبيه : ففى كلتا الحالتين غطيت رقبة الشخص المعنى ويداه بجلد الحيوان الضحية أو شحمه • على أن مغزى هذه الشعائر لم يتضح بعد • وربما اكتشفنا مغزاها من خلال فحصنا لشعائر مشابهة لها تؤدى فى مناسبات مختلفة عند قبائل افريقيا الشرقية •

فمن المألوف بين هذه القبائل أن يقدم حيوان ضحية ، غالبا ما يكون نجعة أو شاة ، ويسلخ جلده ويقطع الى شرائح تلف حول معصمى الشخص الذى يراد له الاستفادة بسحرها بطريق أو بآخر أو تلف حول أصابعه • وقد يكون الهدف من ذلك درء المرض عنه أو اكسابه مناعة ضده أو تطهيره من دنس أو تخليصه من قوى غريبة تتملكه • فعندما يولد طفل بين « الأكامبابين » ، تذبح نعجة ويسلخ جلدها وتقطع منه ثلاث شرائح تلف حول معصمى الطفل ومعصمى الأب والأم ، كل على حدة • وفى مثل هذه المناسبة يذبح الاكيكويون شاة ، ويقص شريط من جلد رجليها الأماميتين يلف حول معصم الطفل حتى تبعد عنه الحظ العاثر أو الدنس (ناهو) الذى يعتقد فى أنه يلازم الأطفال المولودين • ومثل هذه العادة تتبع كذلك بين « الأكيكويون » فى احتفال غريب هو احتفال « الميلاد الجديد » (كو ــ تشى ــ آ ــ روو ــ أوكى ــ رى) أو « الميلاد من نعجة » (كو ــ تشى ــ آ ــ رى ــ ى ــ رو ــ هذه أومتور ــ ى) كما يسمونه الاهالى ، وهو الاحتفال الذى يحتم

أن يؤدى لكل طفل قبل ختانه • ويختلف عمر الأطفال الذى تقام فيه هذه الشعائر حسب الزمن الذى يمكن أن يقتنى فيه الأب النعجة أو الشاة اللازمة لتأدية الطقس ، ولكنه يبدو أن شعائر الميلاد الجديد تؤدى فى الغالب عندما يبلغ الطفل حوالى العاشرة من عمره ، وربما قبل ذلك • فاذا كان والد الطفل متوفيا أو والدته ، عين بدلا منهما رجل وأمرأة يكونان بمثابة الوكيلين عنهما ، وفى هذه الحالة ينظر الطفل الى هذه المرأة بوصفها أمه • ثم تذبح شاة أو نعجة بعد ظهر هذا اليوم ويحتفظ بمعدتها وأمعائها • ثم يقام الاحتفال بعد ذلك فى المساء فى كوخ من الأكواخ حيث لا يسمح لغير النساء بالحضور • ثم تمرر قطعة ذات شكل دائرى من جلد النعجة أو الشاة فوق احدى كتفى الصبى الذى سيولد من جديد ، وتحت ذراعه من الجانب الآخر لهذا الكتف ، كما تمرر أمعاء الحيوان فوق الكتف الأخرى وتحت الذراع الثانية للصبى • ثم تجلس الأم أو من تقوم مقامها ، على جلد الحيوان المبسوط على الارض والطفل بين ركبتيها ، وتمرر حولها أمعاء الحيوان ثم توضح تلك الأمعاء بعد ذلك أمام الصبى • ثم تأخذ الأم فى الأنين كما لو كانت تعانى آلام الوضع • وتأتى أمرأة ثانية فتقطع أمعاء الحيوان الذى يمثل الحبل السرى • وعند ذلك يصطنع الصبى بكاء الطفل الوليد • ولا يجوز للصبى قبل أن تؤدى له شعائر الميلاد الجديد أن يشارك فى دفن جثة أبيه أو أن يساعد فى حمله الى الخلاء ليموت هناك • وقد كانت شعائر الميلاد الجديد سالفا ترتبط بشعائر الختان ، ولكننا الآن نبحث الظاهرتين منفصلتين •

هذه هى عادة الميلاد الجديد الغريبة كما تمارسها أو كانت تمارسها قبيلة « أكيكويو » ، وكما وصفها بعض المواطنين الذين تخلصوا من سيطرة التقاليد وتعرضوا للتأثير المسيحى ، للسيد « روتلدج » وزوجته • ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا محجمين عن الحديث فى هذا الموضوع ، ولم يجد معهم الاغراء الرشوة فى السماح للباحثين الانجليز لمشاهدة هذه الشعائر • وعلى الرغم من ذلك فان

مغزاها العام واضح كل الوضوح . كما أنه يزداد وضوحا من خلال الاسم الذى يطلقه الأهالى على هذه الشعائر وهو « ميلاد الصبى من النعجة » •وجوهر هذه الشعائر فى الحقيقة هو تظاهر الأم بأنها النعجة التى يخرج من بطنها الصبى • وهذا يفسر نشر معدة الحيوان وجلده حول الصبى ، كما يفسر تمرير أمعائه حول الأم والطفل معا • وتتضح عملية تظاهر المرأة بأنها حيوان يلد ، أكثر من ذلك من خلال حكاية مستقلة رواها « س • و • هوبلى » عن هذا الاحتفال ، وان يكن الحيوان الذى تقوم المرأة بتقليده فى هذه الحالة شاة وليس نعجة• واسم هذا الاحتفال كما ذكر « هوبلى » « كو — تشياريو — رينجى»، وترجمته الحرفية « الميلاد مرة أخرى » • ثم يخبرنا « هوبلى » بعد ذلك أن قبيلة « أكيكويو » تنقسم الى فرعين هما « كيكويو » و « مساى » ، وأن اجراءات هذا الاحتفال تختلف على نحو ما من فرع لآخر • فاذا كان والدا الطفل ينتميان الى فرع « مساى » ؛ فان طقوس الاحتفال تجرى على النحو التالى : « يذبح الأب خروفا بعد ميلاد الطفل ذكرا كان أم أنثى ، بحوالى ثمانية أيام ، ويأخذ معه لحمه الى البيت الذى يسكنه أم الطفل ، فتأكل الأم لحم الحيوان هى وجيرانها طالما كانوا ينتمون الى فرع « مساى » • وفى نهاية الوليمة تزين الأم بجلد رجل الخروف الأمامية اليسرى وبجلد كتفيه وذلك عن طريق ربط شريط من هذا الجلد بين معصمها الأيسر وكتفها اليسرى • وتظل الأم على هذا النحو مدة أربعة أيام ، وبعد ذلك ينتزع عنها هذا الشريط ويوضع فى سريرها حيث يظل فيه حتى يختفى • كما يحلق شعر الأم والطفل فى اليوم الذى تؤدى فيه هذه الشعائر • على أن هذا الاجراء ليس له صلة بتسمية الطفل ، اذ أنه يسمى يوم ميلاده » • وهنا نرى أن الهدف من هذه الاجراءات هو أن تقترن الأم بالخروف ، ويتم هذا عن طريق أكلها لحمه وارتدائها جلده الذى يترك فى سرير الأم مدة ثمانية أيام قبل ميلاد الطفل • اذ من الملاحظ ان شعائر الميلاد الجديد على هذا النحو تتبع الميلاد الحقيقى بفترة لا تتجاوز بضعة أيام •

فاذا كان الأبوان ينتميان الى فرع « كيكويو » ، فان طقوس الميلاد الجديد فى جنوب بلد « الكيكويين » تجرى على النحو التالى : « يذبح خروف بعد ميلاد الطفل بيوم ، ثم يغلى بعض دهن الحيوان فى وعاء يقدم للأم والطفل ليشربا منه • على أنه لم يذكر على وجه التحديد أن هذا العمل له صلة مباشرة بطقس الميلاد الجديد ولكنه يذكره فى بداية وصف هذا الطقس • فاذا بلغ الطفل ما بين الثالثة والسادسة من عمره ، يذبح الأب خروفا ، ويزين الابن بجزء من جلده وجزء من جلد معدته وذلك بعد ذبحه بثلاثة أيام • ثم يربط هذا الجلد حول كتف الابن اليمنى ، أو حول كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله • ويظل الابن مرتديا هذا الجلد مدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يضاجع الأب والأم • على أن هناك ملاحظة على جانب من الأهمية ، وهى أن ينام الابن مع أمه فى سريرها ، قبل أن يزين بجلد الحيوان ، ويصرخ صراخ الطفل المولود • ولا يصح ختان الابن الا بعد القيام بهذه الشعائر • وبعد أن يختن ببضعة أيام يعود الابن فينام فى سرير فى كوخ أمه ، أما الأب فلا يعود الى هذا الكوخ قبل أن يذبح خروفا ويقدم للصبى جرعة من دمه • وبهذه المناسبة ينبغى على الأب أن يضاجع الأم » •

فاحتفال الميلاد الجديد فى هذا الشكل الشعائرى الذى وصفه « روتليدج » وزوجته ، يؤجل بضعة سنوات بعد ولادة الطفل • وسواء أقيم هذا الاحتفال اثر ولادة الطفل مباشرة أو بعد ذلك بسنين ، فانه جوهره واحد ، وهو أن تتظاهر الأم بأنها شاة تضع وليدها ، على أنه ينبغى علينا أن نشير الى استبدال الخروف بالشاة فى هذا العمل التشريعى ، ذلك الاستبدال الذى ليس من السهل علينا أن نفسره فى هذا المقام •

وبعد أن انتهى « هوبلى » من وصف طقوس الميلاد فى شكلها كما تتبع عند فرعى قبيلة « اكيكويو » ، عاد فوصف لنا طقوس احتفال آخر

شبيه فى شكله باحتفال الميلاد الجديد • ويطلق على هذا الاحتفال الأخير اسم مشابه للاحتفال الأول وليس مطابقا له كل التطابق (فهو يسمى « كو شيآريو كونجى » بدلا من « كو ــ شيآريو رنجى » • وهذا الاحتفال الثانى هو احتفال التبنى • وقد قيل : انه يشبه الاحتفال « السواحيلى » الذى يسمى « ندوجو كو شانجايانا » • « فمن الطبيعى أن الشخص الذى ليس له اخوة أو والدان ، أن يجتهد فى أن يكون تحت حماية رجل ثرى وأسرته • فاذا وافق هذا الرجل الثرى على أن يتبناه ، فان كلا منهما يأخذ خروفا ويذبحه فى حضرة شيوخهما ثم يقطع هؤلاء الشيوخ جلد الرجل اليمنى من كل خروف وجلد صدريهما الى شرائح تلف حول يدى كل من المتبنى والمتبنى بحيث يزين كل منهما بشرائح جلد خروف الآخر • وعند ذاك ينظر الى الرجل الفقير بوصفه ابنا للرجل الغنى • فاذا شاء المتبنى أن يتزوج ، دفع الرجل الغنى عددا من الرءوس فى مقابل شراء زوجة له » • ومن الصعب فى هذا الاحتفال أن يكون هناك تظاهر بالميلاد الجديد ، حيث ان بطلى هذا الاحتفال من الذكور • ولكننا عندما نقارن هذه العادة بالعادات السالفة ، فانه يحق لنا أن نفترض أن كلا من المتبنى والمتبنى يتظاهر بأنه شاة •

وهناك شعائر أخرى تؤديها قبيلة « كيكويو » قبل الاحتفال بالختان • ففى صباح اليوم السابق على تأدية شعائر الختان ، يذبح جدى شنقا ام يسلخ جلده ويقطع الى شرائح • ثم تلف شريحة منها حول معصم الصبى الأيمن ويسحب من خلف يده بحيث يدخل بنصره فى شق فى هذا الجلد • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « واشامبا » ، وهى قبيلة تقطن فى افريقيا الشرقية • فقبل القيام باحتفالات الختان • تقدم نعجة ضحية لروح أحد الأجداد ، ثم تقطع حلقات من جلد النعجة كى يلف بها الصبى الذى سيختن ، كما يلف بها أبواه وأقرباؤه • ثم يتضرع الأب الى الروح وهو يذبح النعجة ويقول : « لقد اجتمعنا كى نخبرك بأن ابننا سيختن اليوم • فلترع طفلنا وكن رحيما به ولا

تكن غاضبا علينا • وها نحن نقدم لك نعجة » • وهنا يبدو أن أفراد الأسرة وهم يلتفون بالحلقات التى قطعت من جلد النعجة ، يقرنون أنفسهم بهذا الحيوان الذى يقدم ضحية لروح أحد الاجداد • وعند قبيلة « واتشاجا » التى تسكن جبل كيليمانجالوا يجتمع الصبية بعد شهرين من ختانهم فى قرية الزعيم حيث يجتمع كذلك العرافون والاطباء ، وهناك تذبح النعاج ويقطع الأولاد الذين ختنوا حديثا شرائح من جلدها ويدخلون أصابعهم الوسطى من أيديهم اليمنى فى شقوق طولية يحدثونها فى شرائح الجلد • وفى هذه الأثناء يصنع العرافون دواء مصنوعا من محتوى معدات النعاج بعد مزجها بالماء والمواد السحرية • ويرش الزعيم هذا المزيج على الصبية حتى يتم فيما يبدو اتحادهم السحرى أو المقدس بالنعاج • وفى اليوم التالى يتم والد كل صبى وليمة لأقربائه ، فيذبح نعجة ، ويأخذ كل ضيف قطعة من جلد النعجة يلفها حول الاصبع الاوسط من يده اليمنى • ويحق لنا فى هذا المجال أن نقارن بين هذا الاحتفال باحتفال آخر يقوم به « البورانيون الجاليون » عندما يصل الصبية عندهم سن البلوغ • وهذا الاحتفال يسمى « أدا » أو الجبهة وتفسره كلمة « جارا » معناها الختان • وفى هذه المناسبة يجتمع الغلمان الذين يحتفل بطهورهم ، مع آبائهم وأمهاتهم وشيوخ أقربائهم فى كوخ يبنى لهذا الغرض • ثم يذبح ثور على سبيل التضحية ويغمس كل فرد من الحاضرين اصبعه فى دم الثور بحيث يقطر منه الدم ، كما يدهن الرجال جباههم والنساء قصباتهن الهوائية ببعض هذا الدم • ثم تدهن النساء أنفسهن بدهن الضحية ؛ كما يرتدين شرائح رفيعة من جلدها حول رقابهن ويحتفظن بها على على هذا النحو حتى اليوم التالى • وفى النهاية تقام مأدبة من لحم الثور الضحية •

ويستخدم جلد الحيوان على هذا النحو فى احتفالات الزواج عند بعض القبائل الافريقية • ويجرى جزء من هذه الاحتفالات عند قبيلة « واوانجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية

البريطانية على النحو التالى : يذبح ذكر من الماعز ويقص شريط طويل من جلد معدته • ثم يشق والد العريس أو أى غريب آخر مسن له ، الجلد طوليا ويمرره فوق رأس العروس بحيث يتدلى على صدرها ويقول : « لقد وضعت الآن الجلد على رأسك ، فاذا هجرتنا لكى تتزوجى رجلا آخر ، فليتبرأ منك هذا الجلد ولتصبحى عاقرا » • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « وا ــ جيرياما » وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، اذ يذبح الزوج عنزة فى اليوم التالى لزواجه ويقطع شريطا من جلد جبهتها ويصنع منه تعويذة يقدمها لزوجته كى ترتديها فى ذراعها اليسرى • أما لحم العنزة فيأكله الحاضرون • ونلاحظ فى هاتين الحالتين أن جلد العنزة لا تستخدمه سوى الزوجة • على أن الزوج فى قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى يستخدمه كذلك • ففى يوم العرس تختار عنزة قوية سليمة من بين القطيع وتمسح بالزيت ثم تشنق • وبعد ذلك تنتزع أحشاؤها التى يتفاءل أو يتشاءم بالحالة التى تكون عليها • ثم يسلخ بعد ذلك جلد الحيوان ويصنع منه على وجه السرعة رداء ترتديه العروس فى الوقت الذى تشوى فيه النساء لحم الحيوان ويأكلنه • وفضلا على هذا فانه يصنع من جلد الحيوان خاتم وسوار • أما الخاتم فيرتديه العريس فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، وأما السوار فترتديه العروس فى معصم يدها اليسرى •

وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الخواتم التى تصنع من جلد النعجة الضحية ، يرتديها الأشخاص الذين يعقدون عهد الصداقة فيما بينهم • ويبدو أن هذه العادة مألوفة بين القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية • فأواصر الصداقة تعقد عند قبيلة « واشاجا » من خلال الاحتفال الذى يسمى « كيسكونج » • « ويتكون هذا الاحتفال من أخذ قطعة من جلد رأس عنزة الضحية وشقها بحيث يرتديها الشخص كما لو كانت خاتما فى اصبعه الأوسط » • وبالمثل فان تبادل الخواتم

التى تصنع من جلد الحيوان الضحية الذى يؤكل لحمه عادة ، من شأنه أن يدعم أواصر الصداقة بين أفراد قبيلة « أكابا » .

وتقيم قبية « أكيكويو » مثل هذا الاحتفال ، وإن يكن فى صورة أكثر اتقانا عندما يترك رجل حيه لينتمى رسميا لحى آخر . عند ذاك يحضر هذا الرجل شاة ، وكذلك من يقوم بتمثيل الحى الذى أوشك على أن ينتمى اليه الرجل المعنى ؛ وقد يحضر كل منهما ثورا ان كانا موسرين . ثم يذبح الحيوانات « ويقطع شريط من جلد معدة كل حيوان وكذلك من رجل كل منهما . ثم يوضع دم الحيوانين معا فى وعاء كما توضع أحشاؤهما فى وعاء آخر . ثم يأتى شيوخ من قبل الطرفين ويشقون الشرائط التى قطعت من جلد الحيوانين ويصنعون من كل جلد سوارين يرتديهما الطرفان ، بحيث يلبس كل طرف السورين المصنوعين من جلد الحيوان الطرف الآخر . ثم يحضر شيوخ الطرفين الوعاءين المملوءين بالدم وأحشاء الحيوانين ، ويسكبون بعض الدم فى راحتى أحد الاطراف الذى يسكبه بدوره فى راحتى الطرف الآخر . وعند ذاك يستدعى الواقفون ليشهدوا على امتزاج دم الحيوانين ويستمعوا الى التقرير الذى يعلن ان الطرفين أصبح يجمعهما دم واحد » . وهذا المثال واضح كل الوضوح ، حيث انه يطلعنا فى غير لبس على ان الغرض من هذا الطقس هو ربط الطرفين المتعاقدين فى دم واحد . ومن ثم فنحن ملتزمون لأن نفسر بناء على هذا الاساس عادة احاطة المعاصم بشرائح من جلد الحيوان الذى يستخدم دمه فى شعائر هذا الاحتفال .

وتقوم قبيلة « واونجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى شرق افريقيا البريطانى بتقديم عدد من الحيوانات ضحية وذلك قبل ان يسمح للاهالى بزرع الذرة ، أما سائر قبائل هذه المقاطعة فتقوم بخلق كبش أمام كوخ أم الملك ، ثم تنتزع أحشاؤه وتوضع فى الكوخ بجانب السرير بحيث يكون مواجها لرأس السرير . وفى اليوم التالى لذلك تؤخذ الأحشاء وتقطع ، ويلف الملك وأبناؤه وزوجاته أجزاء منها

حول أصابعهم • ويقوم شعب « النجامين » ، وهو شعب مخلط يسكن فى آفريقيا الشرقية البريطانية برى زراعاتهم عن طريق قنـــوات تحفر فى موسم الجفاف • فاذا حان ميعاد رى الزرع عن طريق فتح القنوات حتى تتسرب منها المياه الى الحقول ، يقتلون شاة ذات لون محدد خنقا وينثرون شحمها المسلى وروثها ودماءها فى شقوق الارض وفى ميـــاه الرى • واثر ذلك تفتح القنوات ويوكل لحم الشاة الضـــحية • وينبغى على الرجل الذى قام بخنق الشاة ، والذى يتحتم ان يكون منتميـــا لعشيرةمعينة ، أن يرتدى جلد الشاة حول رأســـه مدة يومين • فاذا ثبت فيما بعد أن المحصول ليس وافرا ، أعيدت الشـــعائر مرة أخرى ، فيجتمع شيخان من شيوخ هذه العشيرة المتسلطة التى يمكن مقارنتها باللاويين الاسرائيليين ، مع شيخين من أية عشـــيرة أخرى ، ويعودون معا الى الحقول حاملين معهم شـــــاة من نفس لون الشـــــاة الاولى ويذبحونها ويأكلون لحمها ثم يقطعون جلدها ويأخذ كل منهم قطعة منه يلفها حول رأسه مدة يومين • فاذا فرغوا من ذلك ساروا حول الحقل فى اتجاهين متعارضين وهم ينثرون شحم الحيوان وروثه ، كما ينثرون العسل فى الحقل حتى يلتقوا مرة أخرى •

ويقدم الفرد فى قبيلة « ماساى » ضحية للاله حتى يحفظه هـــو وقطعانه سليما معافيا • وتقدم هذه الضحية بين الحين والآخر ، وهى تقدم فى بعض الأماكن كل عام • وعند ذاك تشعل النار فى القريـــــة ، عن طريق حرق الخشب الجاف والأوراق ولحاء الشجر ، كمـــــا ينثر فيها مسحوق يثير عمودا من الدخان المتصاعد الذى تنبعث منه الرائحة العطرة • وعند ذاك تشتم الآلهة فى الســـــماء هذه الرائحة الطيبـــة وتستريح لذلك • ثم يحضر كبش بدين أسود ويغسل بالعسل المتخمر ويرش عليه مسحوق خشب معين ثم يقتل خنقا ويسلخ جلده ويقطـــع لحمه ، ويأخذ كل فرد من الحاضرين قطعة من اللحـــــم يشـــــويها ويأكلها ، كمايتســـــلم شريطا من جلد الحيوان يصنع منه عددا مـــن

الخواتم يلبس أحدهما فى اصبعه ويقدم الباقى لافراد أسرته • وهذه الخواتم هى بمثابة تعاويذ تحفظ من يرتديها من كل أنـواع المرض • أما النساء فيعلقنها فى أقراطهن الضخمة المصنوعة من أسلاك حديدية ذات شكل لولبى ، وهى تلك التى يزين بها صدورهن أو لنقل يشوهنها •

ومثل هذه العادة تتبع فى حالة المرض • فقد يحدث بين قبيلـة « واوانجا » على سبيل المثال ، أن يستدعى الرجل المريض وهـو فى حالة الهذيان ، شخصا من أقربائه المتوفين • فاذا فعل ذلك ، فان هذا معناه أن المرض قد جاوزه واستقر عند عتبة شبح الميت ، ومن ثـم فان أقرباءه يقومون باجراء من أجل القضاء على هذا المرض • وهنـا تقدم بعض النقود لرجل عجوز فقير لكى يقوم بالعمل الخطير وهـو اخراج جثة هذا الميت من القبر ، ثم تحرق عظامها فوق عش مـن أعشاش النمل الأحمر ، ويجمع بعد ذلك الرماد فى سلة يطرح بهـا فى النهر • وقد تختلف وسيلة تهدئة الشبح عن ذلك بعض الشىء • فبدلا من اخراج عظم الميت ، يزج سيخ فى القبر • ولكى يزدادوا يقينا مـن أنهم قد أصابوا الشبح ، فانهم يصبون الماء المغلى اثر ذلك فى القبر • وبعد أن يشعروا برضائهم فى القضاء على الشـبح على هذا النحو يذبحون كبشا أسود ويمسحون صدورهم ببعض روثه الذى يأخذونه من أمعائه ، ويلفون شرائح من جلده حول معاصمهم اليمنى • ثم يأتى زعيم الاسرة التى ينتمى اليها المريض ، ويأخذ قطعة من جلد الحيوان ويلفها حول سبابة يده اليمنى ، كما يلف المريض نفسه شريطا آخـر من جلد الحيوان حول عنقه • وفى هذه الحالة لايمكن أن يكون الهدف من وراء التضحية بالكبش الاسود هو اسكان غضب الشبح ومصالحته حيث انه قد زج بالسيخ فى رأسه ، كما سكب الماء المغلى على عظامـه وأولى من ذلك ان نفترض أن التضحية بالكبش ترجع الى مزيد من الشك فى انه حتى هذه الوسائل العنيفة ربما لايكون لها الأثر الفعـال فى القضاء على الشبح • ومن ثم يحق لنا أن نفترض ، اذا شـئنا أن نكون فى الجانب الآمن ، أن الرجل المريض وأصدقاءه ، يذبحهـم

الكبش ، يحصنون أنفسهم ضد طعنات الشبح وذلك عن طريق ارتدائهم لجلده الذى يخدمهم فى هذا الغرض بوصـــفه تعويذة • فاذا اتهم شخص من بين هذه القبيلة بالسرقة ، فانه يذهب مع متهمه الى شجرة محددة هى شجرة (ارثرينا توميننتوزا) ، ويزج كل منهما برمحه فيها ، فيقع أثر ذلك المذنب منهما ، سواء أكان هو المتهم بالسرقة أم من اتهمه فريسة للمرض • على أنهم لم يقدموا سببا يعزى اليه مرض هـذا الشخص ، وانما نرجح أن روح الشجرة التى استاءت بطبيعة الحـال لطعنها بالسهام ، تنتقم لغضبها ، عن طريق التمييز الحصيف ، مـــن المجرم وحده • ومن ثم فان الرجل الشرير يمرض ، ولاشىء يشفيه من مرضه الا اذا اقتلعت الشجرة من جذورها ، لأن هذا هـــو الطريق الوحيد للقضاء على روح الشـــجرة • وبناء على ذلك فان أصـــدقاء المريض يأتون الى الشجرة ويقتلعونها ، وفى الوقت نفســـه يقومون بذبح شاة ويأكلون لحمها توا ، كما يتناولون معه بعض الأدوية • ثـم يلف كل فرد منهم شريطا من جلد الحيوان على معصم يـده اليمنى • أما الرجل المريض نفسه الذى تقام هذه الشعائر من أجلـــه • فيلف شريطا من جلد الحيوان حول رقبته ، كما يمسح صدره بروث الحيوان المذبوح • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الغرض من ذبح الشاة ليس هـو استرضاء الروح بحال من الأحوال وانما هو بالأحرى حماية المريض وأصدقائه من نقمة روح الشـــجرة ، وذلك فى حالة ما اذا كانوا قـد فشلوا فى القضاء عليه عن طريق تحطيم الشجرة •

كما تنتشر عادة ارتداء جزء من جلد الحيوان الضحية انتشـارا مألوفا بين قبائل افريقيا الشرقية ، وذلك عندما تقام شـعائر التكفير عن الذنب • فاذا ضرب رجل من قبيلة « واتشـاجا » زوجته وخرجت من بيته اثر ذلك ثم عادت اليه ، فان الزوج يقطع أذن نعجة ويصـنع منها خاتمين ، ويقوم كل منهما بوضع خاتم فى اصبع الآخر • ولا يجوز للزوجة قبل ذلك أن تطهو له الطعام أو أن تأكل معه • وتنظر قبيلـــة وانشاجا وبالمثل كثير من القبائل الافريقية ، الى الحدّاد نظرة فزع ،

منشؤه التطير منه • ذلك لأنهم يعتقدون أن قوى غريبة تتملكه وترفعه فوق مستوى الرجل العادى • ولا تقتصر هذه النظرة الغريبة الغامضة على شخص الحداد فحسب ، وانما تمتد الى آلاف حرفته ، وبصفة خاصة المطرقة التى تمتلك وفقا لتصورهم ، قدرة سحرية أو روحية • ومن ثم فانه يتحتم على الحداد أن يكون حريصا فى استعمال هذه الآلة فى حضرة الناس ، والا تعرضت حياتهم بتأثير سحرها العجيب للخطر البالغ • فإذا أشار بها إلى رجل على سبيل المثال ، فانهم يعتقدون أن هذا الرجل سوف يموت ، ما لم تؤدى شعائر مقدسة لابعاد الشر الذى قد يلحق به • وعند ذاك تذبح عنزة ويصنع خاتمان من جلدها ، أحدهما يلبسه الحداد فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، والآخر يلبسه الرجل المعرض للخطر فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى كذلك ، ثم تتلى عبارة التطهير التقليدية • وتؤدى هذه الشعائر كذلك اذا أشار الحداد الى أحد بمنقطة النار ، أو اذا رمى فى غير تعمد ، برادة حديده على أحد •

وتودى قبيلة « وانشاجا » التى تسكن فى مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية ، شعائر للتكفير من هذا النوع • فاذا اقتحم شخص غريب كوخا من الأكواخ ، على سبيل المثال ، وسقطت عباءته الجلدية على الأرض ، أو كان قد اشترك فى مشاجرة ما أصيب على أثرها بجراح تساقطت منها قطرات من الدم على أرض الكوخ ، فان أحد سكان الكوخ يكون فى هذه الحالة معرضا للمرض ، ما لم تؤد شعائر معينة لدرء هذا المرض • وفى هذه الحالة يتحتم على هذا الشخص الغريب أن يحضر عنزة ويذبحها ويسلخ جلد صدرها وبطنها ويقطعه الى شرائط تقلب فى محتوى معدة الحيوان ، ثم يأخذ كل فرد من أفراد الكوخ شريطا منها ويلفه حول معصم يده اليمنى • فإذا حدث أن وقع أحد أفراد الكوخ فريسة للمرض قبل أن يتخذ هذا الاجراء ، فان الشريط يلف فى هذه الحالة حول رقبة المريض ، كما يمسح صدره ببعض روث الحيوان • ثم يأكل أفراد الكوخ نصف لحم العنزة والنصف

الآخر يأكله القادم الغريب • وتعتقد قبيلة « واونجا » وبالمثل كثير من القبائل الهمجية ، أن الام التى تلد توأما ، تكون معرضة لأخطار بالغة ، ومن ثم يتحتم القيام بشعائر متنوعة قبل أن تتمكن من مغادرة الكوخ والا لحق بها من الأذى مالا داعى لذكره • ومن بين هذه الشعائر ، أن تقوم الأسرة باصطياد حيوان التليا « الخلد » وقتله عن طريق وخزه بشوكة خشبية خلف رقبته ، ثم تشق بطنه وتنتزع محتويات معدته ويمسح بها صدر الأم وصدرا الطفلين التوأم • ثم يقطع جلد الحيوان الى شرائط تلف حول المعصم الايمن من كل صبى كما تلف حول عنق الأم • وبعد خمسة أيام من ارتداء هذه الشرائط تخرج الأم لتستحم فى النهر وترمى بهذه الشرائط فيه • ثم يدفن لحم الحيوان تحت شرفة الكوخ ، كما يطرح جزء منه أمام باب الكوخ وتوضع فوقه آنية مثقوبة من أسفلها فى وضع مقلوب •

وأخيرا ، ربما تسنى لنا أن نشير الى أن قبائل افريقيا الشرقية تستخدم على هذا النحو جلد الحيوان الذى يقدم ضحية فى احتفالات مقدسة بعينها ، تقام بين فترات متباعدة وفقا لمراتب الاعمار التى يقسم اليها الشعب بأسره • فقبيلة نانادى على سبيل المثال ، تنقسم الى سبع مراتب • وبناء عليها يقام هذا الاحتفال كل سبع سنوات ونصف • وعند كل احتفال يتحول حكم البلد من رجال ينتمون الى مرتبة انقضت ، الى رجال أصغر منهم سنا وينتمون الى مرتبة قادمة من العمر • ويحضر رئيس الاطباء هذا الاحتفال الذى يبدأ بذبح ثور أبيض يقوم المحاربون من الشباب بشرائه لهذا الغرض • وبعد أن يأكل شيوخ القبيلة لحم الثور ، يصنع كل شاب من شباب القبيلة خاتما من جلد الحيوان ويلبسه فى أحد اصابع اليد اليمنى • وبهذه الطريقة تنتقل فى صورة شكلية قوة الشيوخ الى الشاب • وعند ذاك يخلع المحاربون الشباب أرديتهم الجلدية ويتشحون بأردية الشيوخ المصنوعة من الفرو • وفى الاحتفال المماثل لذلك عند قبيلة أكيكويو الذى يجرى عندهم كل خمسة عشر عاما ، يلف كل فرد شريطا من جلد

جدى ، يقدم ضحية لهذا الغرض ، حول معصمه ، وذلك قبل أن يعود الى بيته •

وقد نخلص بعد هذا العرض الشامل للعادات السالفة ، الى أن الغرض من ارتداء الشخص لجزء من جلد الحيوان الضحية ، هـــو حمايته من شر اصابه حقا أو قد يصيبه • أى أن جلد الحيوان يستخدم فى هذه الحالة بوصفه تعويذة • وربمـا انطبق هذا التفســـير على الحالات التى تتبع فيها هذه العادة عند التصديق على عهد من العهود ، حيث ان الطرفين المتعاهدين يحميان أنفسهما من خطر قد يلحق بهمـا اذا ما نقض أحدهما العهد • كأننا يمكننا أن نفترض أن الغرض مـن طقس الميلادالجديد أو الميلاد من النعجة ، الذى تعودت قبيلة أكيكويو أن تؤديه قبل ختان الصبية ، هو حماية هؤلاء الصبية من بعض الشرور التى قد تلحق بهم اذا لم تود لهم الشعائر المناسبة • أما الطريقة التى يتأثر بها الشخص المعنى بهذه الشعائر ، فهى أن الشخص بارتدائـه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايذاء القوى الشريرة له ، سواء كان ذلك عن طريق خداعها أو مداهنتها ، فتوجه تأثيرها الى الحيوان ، بدلا من الرجل • أو أنه يظن أن لحم الحيوان ودمه وجلده له خاصية سحرية معينـــة تحفظ الشر بعيدا عن الانسان • وتتضح فكرة مطابقة الانســـان بالحيوان كل الوضوح فى شعيرة الميلاد الجديد عند قبيلة « كوكويو » فبناء على هذه الشعيرة تتظاهر الأم بأنها نعجة وأن ابنها المولودهـو الجدى الصغير المولود • ويحق لنا أن نفترض من خلال هذه الشعائر أن ارتباط الانسان بقطعة من جلد الحيوان الذى قدم ضحية يعد بديلا للفه فى جلد الحيوان كله • والغرض من هذا الفعل هو مطابقة الانسان بالحيـــوان •

٣ ــ الميـــلاد الجـــديد :

ان حكاية يعقوب الغريبة التى تحكى عن الاحتيال والخديعة اللذين دبرهما الابن الماكر متواطئا مع أمه ضد الأب والزوج الخرف ، بقصد تحويل بركة الاب من عيسو الى يعقوب ، تحمل مظهرا آخر أكثر وقارا

من ذلك الذى خلعه عليها كاتب القصة ، وذلك اذا افترضنا أن هذا الدور المعيب الذى لعبته القصة ، قد ضمنه اياها القاص الذى فشل فى الوصول الى الفهم السليم لطبيعة العمل الذى وصفه • فالعمل الذى قام به يعقوب ، ان كان فرضنا سليما ، ليس سوى عمل شرعى يحمل مغزى الميلاد الجديد فى شكل عنزة ، وذلك بهدف أن يعامل يعقوب شرعيا معاملة الابن الأكبر بدلا من كونه الابن الأصغر • وقد سبق أن رأينا أن عادة الميلاد من عنزة أو شاة قد لعبت فيما يبدو ، دورا مهما فى الحياة الاجتماعية والدينية عند قبيلة « أكيكويو » التى تسكن افريقيا الشرقية ، والتى ترجع فيما يبدو ، الى أصل عربى ، ان لم تكن ترجع الى أصل سامى • وفى وسعنا أن ندعم نظريتنا هذه اذا استطعنا أن نبين أن عادة التظاهر بالميلاد الجديد عن طريق امرأة أو حيوان ، كانت تتبع بين شعوب أخرى فى أحوال يظن فيها أنه من الافضل للرجل أن ينسلخ من شخصيته القديمة ويصطنع شخصية جديدة يبدأ بها مرحلة جديدة فى حياته • وباختصار فان عادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى مرحلة مبكرة من تاريخ التشريع فى التأثير على وضع من أوضاع الانسان واعشارة الى ما يعترى حياته من تغير فى هذا الوضع • والأمثلة التالية يمكن أن توضح هذا الغرض العام •

فعادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى المقام الأول استخداما طبيعيا فى أحوال التبنى ، أى بقصد جعل الابن المتبنى ابنا حقيقيا للأم المتبنية له • فالمؤرخ الصقلى « ديودورس » يخبرنا أن هرقل عندما ارتفع الى مصاف الآلهة ، أغرى أبوه الاله « زيوس » زوجته « هيرا » أن تتخذ من هذا الابن غير الشرعى ابنا حقيقيا لها • وقد حققت الآلهة النبيلة مطلب زوجها ، بأن نامت فى سريرها وضمت هرقل اليها ثم وضعته داخل ردائها ودفعته حتى سقط على الأرض ، مصطنعة بذلك أنها تلد حقيقة • ثم يضيف المؤرخ الى ذلك بأن البرابرة فى عصره كانوا يتبعون هذا الأجراء فى حالة تبنيهم طفلا • ويبدو أن هذه العادة كانت تتبع فى العصور الوسطى فى أسبانيا وفى بعض جهات أوربا • فكانت الام أو الاب يضع الطفل المتبنى داخل ردائه ، وأحيانا

يضعه فى طيات ردائه المنساب ، ثم يجعله يسقط على الارض • ومن ثم فان الاطفال المتبنين كانوا يسمون « أطفال الاردية » • « وقد ذكر فى عدة مخطوطات من « التقويم العام » أن اليوم الذى عمد فيه « مودارا » وخلع عليه لقب فارس ، لبست زوجة أبيه قميصا فضفاضا فوق ردائها ، ووضعت الطفل فى أحد أكمامه ثم سحبته من فتحته وهى تعلن أنه أصبح أبنها ووريثها » • ويقال : ان هذا الأجراء هو الشكل المألوف الذى يتبع فى أسبانيا عند تبنى الابناء • بل انه ما زال يتبع فيما يقال بين السلافيين الجوبيين • ففى بعض جهات بلغاريا تضع الام الطفل المتبنى داخل ردائها من أسفله وتخرجه من فتحته العليا عند صدرها • وعند « أتراك البوسنة » يجرى الاحتفال بتبنى الطفل على هذا النحو : تدفع الام المستقبلة بالابن المتبنى داخل سروالها مصطنعة بذلك أنها تلد بحق • كما قيل : « ان الطريقة المألوفة لتبنى الطفل عند الأتراك بوجه عام هو أن يمر الشخص المتبنى من ازار الشخص الذى يرغب فى تبنيه • ولهذا فان الاصطلاح الذى يستخدمه الاتراك للتبنى هو : « أن يمر الشخص المتبنى داخل ازار متبنيه » •

« ويقوم بعض الكلمانتانيين سكان بورما (وهم البروانيون والليلاكين الذين يسكنون فى بارام) باحتفال رمزى غريب عند تبنى أسرة لطفل من الأطفال • فاذا استقر رأى رجل وزوجته على أن يتبنيا طفلا ، فانهما يتجنبان ، قبل القيام باحتفال التبنى بضعة أسابيع ، تلك المحرمات التى تتجنب عادة قبل الشهور الاخيرة من حمل الزوجة • وكثير من هذه المحرمات يمكن أن يوصف بوجه عام بأنها الامتناع عن كل عمل يؤدى الى صعوبة فى وضع الطفل أو الى تأخير فى الوضع • ومثال ذلك ألا تزج يد فى جحر ضيق لاستخراج شىء منه ، وألا يثبت شىء فى وتد خشبى ، وألا يتردد الزوج أو الزوجة عند عتبة حجرة ، عند دخولهما أو خروجهما منها • فاذا حان اليوم الذى يجرى فيه احتفال التبنى ، تجلس الام مستندة الى سناد وملفعة بقماش على نحو ما تفعل دائما عند الوضع ، ثم يدفع الطفل من خلف رجليها الى

الامام • فاذا كان الطفل رضيعا ، فانه يوضع على صدرها ليمتص ثدييها ، ثم يسمى بعد ذلك باسم • ومن العسير تماما أن يحصل الانسان على ما يثبت أن طفلا بعينه قد تبنى ، وأنه ليس ابنا حقيقيا لابوين بعينهما • ولا يرجع هذا الى الرغبة فى اخفاء الحقيقة بقدر ما يرجع الى كمال عملية التبنى ، فالزوجان ينظران الى الطفل المتبنى بوصفه ابنا حقيقيا لهما بحيث انه يصعب علينا أن نعثر على ألفاظ تعبر عن التمييز بين الطفل المتبنى والطفل الحقيقى • ويحدث هذا بصفة خاصة اذا ما رضع الطفل المتبنى من الام حقا » •

وهنا نلاحظ أن الوالدين يشتركان معا فى اتباع اجراءات الميلاد الجديد ، فكل من الاب والام يتظاهران بمراعاة النظم التى يتبعها عادة كل أب وأم بين هؤلاء القوم بقصد العمل على تيسير ولادة الطفل الحقيقى • ويقوم الوالدان المتبنيان لطفل ما بدورهما فى هذه المسرحية العائلية بجدية بالغة ، الى درجة أنه لم يعد يميز بين الادعاء والحقيقة ، والى درجة أننا لا نجد ألفاظا تعبر عن الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى • وليست هناك وسيلة أبعد من ذلك تجعل الابن المتبنى يعتقد أنه الابن الحقيقى لابويه المتبنيين له •

فاذا حدث عند قبيلة « باهيما » التى تسكن فى افريقيا الوسطى « أن ورث رجل أولاد أخيه المتوفى ، فانه يأخذهم ويضعهم واحدا تلو الآخر فى حجر زوجته التى تستقبلهم بدورها وتقبلهم بوصفهم أولادها الشرعيين • ثم يحضر الزوج سيرا من الجلد يستخدم فى ربط الابقار الجامحة عند حلبها ، يلفه حول وسط الام بعد الوضع • وبعد هذا الاحتفال يتربى هؤلاء الابناء فى كنف الاسرة ويصبحون من أفرادها » وتتضح ملامح شعائر الميلاد الجديد فى هذا المثال فى وضع الأطفال فى حجر الام ، وفى ربط وسطها بالسير الجلدى على نحو ما تفعل القابلة مع الام بعد ولادة الابن الحقيقى •

وتقام شعائر الميلاد الجديد لصالح الاشخاص الذين كان يظن خطأ أنهم توفوا ، ومن ثم أقيمت لهم الشعائر الجنائزية غيابيا بهدف اهجاع أرواحهم الهائمة التى يمكن أن تتملك الاحياء وتضايقهم مالم تؤد هذه الشعائر • فاذا حدث بعد ذلك ان عاد هؤلاء الاشخاص والتم شملهم بأسرهم ، فان هذا يخلق موقفا محيرا لهذه الاسرة ، حيث ان هؤلاء الاشخاص أصبحوا يعدون نظريا فى عداد الموتى ، بنـــاء على طقوس السحر التقليدية أو شعائر الادعاء • وعندما واجه الاغريق والهنود القدماء هذه المشكلة ، وجدوا حلا لها عن طريق تأدية شعائر الميلاد الجديد • وهنا كان يتحتم على العائد ان يتظاهر فى رهبة ، قبل أن يختلط فى حرية بأقرانه ، أنه قد عاد للحياة مرة أخرى وذلك عن طريق ولادته من امرأة • وقد كان الاغريق يعدون هـــؤلاء أشخاصا نجسين قبل أن تؤدى لهم هذه الشعائر ، فكانوا يرفضون الاختلاط بهم ولا يسمحون لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، ويمنعونهم بصفة خاصة من دخول معابد الآلهات الانتقام • ومن ثم يتحتم على هؤلاء الاشخاص ، لكى يستردوا حقوقهم المدنية ، أن يخرج الفرد منهم من رداء امرأة ، ثم تغسل القابلة له جسمه وتلفه فى القماط وتضعه على صدر هذه المرأة ليمتص ثديها • ويعتقد بعض الناس أن هذه العادة ارتبطت فى نشأتها بشخص بعينه كان يدعى « اريستيفوس » • وقد حدث أن تغيب هذا الشخص وأقيمت له الشعائر الجنائزية فى أثنـــاء غيابه • فلما عاد الى قومه رأى أن الناس جميعا يتجنبونه كما يتجنبون الشخص المطريد • عند ذاك لجأ الى نبوة دلفى يلتمس النصيحة ، فأرشده الاله الى أن يقوم بتأدية شعائر الميلاد الجـــديد • على أن البعض الآخر يعتقد كل الاعتقاد أن هذه العادة أقدم فى نشـــأتها من عصر « أريستيفوس » ، وأنها وصلت اليهم من عصور بالغة فى القدم أما عند الهنود القدماء ، فقد كان يتحتم فى مثل هذه الظروف ، على الشخص الذى كان قد ظن أنه قد توفى ، أن يقضى الليلة التى يعود فيها الى قومه داخل برميل ممتلىء بمزيج من الماء والدهن • وقبل أن يخطو داخل البرميل ، يتلو والده أو أقرب قريب له بعد الأب ، عبارة

محددة يعتقد بعدها أنه قد ارتد الى الحالة التى كان فيها جنينا فى رحم أمه • ولهذا فانه يتقمص شخصية الجنين ، فيجلس فى البرميل ساكنا قابضا يديه رتقام فوقه الشعائر التى تؤدى بانتظـــام للأم الحامل • وفى صباح اليوم التالى يخرج من خلف البرميل ثم يقـــوم بتأدية الشعائر التى سبق له أن أداها منذ بلوغه مرحلة الشـــباب حتى ذلك الوقت ، وبصفة خاصة الاحتفال فى قدسية بزواجـــه من امـــرأة جديدة ، أو من امرأته القديمة • ويبدو أن هذه العادة لم تختف كلية فى الهند حتى يومنا هذا • أما عند « الكوماويين » ، فان الشخص الذى يعتقد فى أنه يلفظ أنفاسه الاخيرة ، يحمل خارج بيته لكى يؤدى له أقرب قريب له شعائر التطهير من الذنوب • فاذا شفى بعد ذلك ، فانه يتحتم عليه أن يقوم بكل الطقوس التى سبق أن قام بها منذ ولادته حتى اليوم ، كأن يرتدى الخيط المقدس ويتزوج النساء ، أو يعـــود فيتزوج زوجاته مرة أخرى •

على أن شعائر الميلاد الجديد كانت تؤدى فى الهند قديما فى غرض آخر مختلف عن الغرض الاول وأكثر منه قدســـية • فـــرب الاسرة البراهمانى الذى كان يقوم بتقديم الضحية بانتظام كل خمسة عشر يوما ، كان يعتقد فى أنه أصبح الها لوقت محدد • ولكى يتم تحويلهمن انسان الى اله ، ومن الفناء الى الخلود ، كان من الضرورى له أن يولد من جديد • وفى هذه الحالة يرش بالماء ، وهو عمل رمزى يشـــير الى الذرية • ثم يصطنع بعد ذلك أنه أصبح جنينا ، وذلك بـــأن يحبس نفسه داخل كوخ خاص يمثل رحم المرأة • ثم يرتدى حزامـــا تحت ردائه ، كما يرتدى فوق الرداء جلد بقرة وحشية سوداء • والحزام يرمز الى الحبل السرى ، كما يرمز الرداء وجلد البقرة الوحشية الى كل من الغشائيين الداخلى والخارجى اللذين يغلفان الرحم • وعند ذاك يجب عليه أن يحرص على ألا يخدش نفسه بمسمار أو عصاة والا مات بوصفه جنينا • ولكنه يجوز له أن يتحرك داخـــل الكوخ ، حيث ان الجنين يتحرك داخل الرحم ، كما يجوز له أن يقبض على يديه حيث

الجنين يفعل ذلك أيضا • فاذا استحم وخلع عنه الجلد الأسود وارتدى رداءه الخارجى بعد ذلك ؛ فذلك لأن الطفل يولد بالغشـــاء الداخلى لا الخارجى • وبهذا يكتسب البراهمانى من خلال هذه الشعائر جسدا جديدا متألقا ذا قوة خارقة ، الى جانب جسده الطبيعى الفانى ، كما يحاط بهالة من النار ، وتهذا يصبح الها من خلال عملية الميلاد الجديد ، ومن خلال تجديده لطبيعته الجسدية •

هكذا نرى أن شعائر الميلاد الجديد يمكن أن تخدم أغراضـا مختلفة ، فهى تعيد الحياة الى الشخص الذى كان يظن أنه مات ، وهى ترفع الرجل الحى الى مرتبة الألوهية • وقد كانت هذه العادة تتبع فى الهند حديثا ، بل انها لا تزال تتبع حقا الى اليوم بين الحين والآخر ، بوصفها طقسـا تطهيريا يكفر عن اهمال النـاس لعـادة من عادات الأجداد • ولهذا يتضح حبل التفكير الذى أدى الى ممارسة هـذه العادة « فالمذنب الذى تقام له شعائر الميلاد الجديد يصـبح رجـلا جديدا ، ومن ثم فهو يكف عن أن يكون مسئولا عن ذنوبه التى ارتكبها قبل الميلاد ؛ فعملية التجدد تعد فى الوقت نفسه عملية تطهير ، اذ أن مثل هذا الشخص قد خلع عنه طبيعته القديمة واكتسب طبيعة أخرى جديدة • فالمجتمع القبلى فى قبيلة « كوركو » ، وهى احدى القبائل الاصلية فى المجموعة الكولاريانية أو « الموندانية » التى تسكن الاقاليم الوسطى فى الهند ، يعاقب من يرتكب جرما اجتماعيا مألوفا بالعقوبات العادية • ولكنه « فى بعض الاحـوال الخطيرة مثل مخالطة الشخص المنبوذ الادنى منه ، فانه يتحتم على مثل هذا الشخص أن يقوم بشعائر الميلاد الجديد ، فيوضع داخل وعاء كبير مصنوع من الطين ويغلق دونه الوعاء • وعندما يخرج منه يقال انه قد ولد من جديد من رحم أمه • وعند ذاك يدفن فى الرمل ويخرج منه جسدا جديدا من التراب • ثم يوضع داخل كوخ مبنى من الاعشاب وتشعل النار فى هذا الكوخ فيجرى هاربا من النار ويغطس فى المـاء ، وأخيرا يقص جزءا من خصلة من شعره التى تنمو على رأسه الحليق ، ويدفع غرامة ، قدرها روبيتان

ونصف روبية » • وهنا يتضح أن شعائر الميلاد الجديد يقصد بها تخليص الشخص من تحمل مسئولية أعماله السابقة ، وذلك عن طريق تحويله كلية الى شخص جديد • ولكن ما ذنب تحمله لاساءة ارتكبها شخص آخر قبل أن يولد هو ؟ •

ويكون احتفال الميلاد الجديد أكثر دقة وأكثر تكلفة اذا كان المذنب الذى يراد القيام بالاحتفال من أجله ذا حسب أو صاحب مجد • ففى القرن الثامن عشر « حدث أن أرسل « راجهو ــ ناث ــ رايا » أو « راجوبا » اثنين من البراهمة بوصفهما رسولين له الى انجلترا ، فسافر اليها عن طريق قناة السويس • ولكنهما عند عودتهما الى وطنهما عوملا معاملة المطرودين ، وذلك لأنهما سافرا عبر بلاد يسكنها « الميليشهانيون » أى القبائل النجسة ، وعاشا بينهم متبعين الشرائح الموضوعة فى كتبهم المقدسة • كما نسب اليهما كذلك أنهما عبرا بحر « أتاكا » • وعند ذاك عقدت الاجتماعات وتوافد البراهمة العلماء من كل حدب . ولم يستطع « راجهو ــ ناثا ــ رايا » بنفوذه وتأثيره أن ينقذ رسوليه من هذه التهمة • وعلى كل فقد انتهى الاجتماع الموقر الى أن يقوم الرسولان بشعائر تجديد جسديهما ووسامتهما الكهنوتية معا ، وذلك اعتبارا لسلوكهما الكريم السالف الذى رفع بهما الى مستوى عالمى . ونظرا للمهمة السامية التى قاما بها فى البلاد النائية من أجل مصلحة بلديهما • ولهذا الغرض طلب منهما أن يصنعا تمثالا من الذهب لاحدى القوى الطبيعية الانثوية فى شكل امرأة أو بقرة • ثم يدخل كل منهما داخل هذا التمثال ثم يسحب من فتحة منه • واذا كان تكاليف هذا التمثال بأبعاده المحددة تعد باهظة ، فيكفى أن يصنعا تمثالا للآلهة « يونى » المقدسة يمر من خلاله الشخص المعنى • ولكن « راجو ــ ناث ــ رايا » صنع لهما تمثالا من الذهب الخالص تمت بواسطته عملية الميلاد الجديد ، كما أجريت الشعائر الاخرى ؛ ومنح البراهمانيان الهدايا المتعددة لقبولهما مرة أخرى فى مجتمع المؤمنين الصادقين » •

« كما روى أن « تانجورى نانياكار » خـدع « مادورا » وعانى المتاعب بسبب ذلك • فنصحه مستشاروه البرهمانيون أنه من الافضل أن يولد ن جديد • وعند ذاك صنعت له بقـرة ضخمة من البرونز ، ودخل « نانياكار » فى تجويفها وأغلقت عليه • ثم استقبلته زوجة معلمه البراهمانى التى كانت تقوم بخدمته ، بين ذراعيها وأجلسته على ركبتيها وضمته الى صدرها ، بينما أخذ « نانياكار » يصرخ صراخ الطفـل الرضـيع » •

كما كانت تستخدم طقوس الميلاد الجديد فى الهند بهدف رفـع رجل ينتمى الى بيئة وضيعة بحكم مولده الى مرتبة اجتماعية أعلى منها • فمهراجيو « ترافنكورى » على سبيل المثال ، ينتمون الى طبقة « السودرا » ، وهى أدنى الطبقات الهندية الأربع • ولكنه يبدو أنهم يرفعون أنفسهم على الدوام الى طبقة البراهمانيين وهى أرفـع هذه الطبقات ، وذلك عن طريق اجراء طقوس الميلاد الجديد من بقرة كبيرة مصنوعة من الذهب أو من زهرة لوتس كبـيرة مصـنوعة من الذهب كذلك • ومن ثم كان يسمى هذا الاحتفـال « هيرانيا » أى الرحـم الذهبى ، أو « باتماجاربها دانام » أى « هدية رحم اللوتس »• وذلك وفقا للشكل الذى يولد منه المهراجا ، بقرة كان أم زهرة اللوتس • فعندما كان « جيمس فوربيس » فى « ترافانكورى » أبصر الحـاكم وهو يخرج من تجويف بقرة مصنوعة من الذهب الخالص • ثم حطم التمثال الذهبى بعد ذلك ووزع على البراهمانيين • وعنـدما أقـام « الراجا مارتاندا فورماه » هذا الاحتفال عام ١٨٥٤ م ، كان التمثال الذى أجريت من خلاله الطقوس هو زهرة اللوتس • وقد قدر ثمنه بحوالى ستة آلاف من الدولارات • وقد وضـع داخل هذا التمثال قدر من المزيج المقدس الذى يتكون من العناصر الخمسة التى تكون محتوى جسم البقـرة وهى « اللبن والزبد وشرش اللبـن والبول والروث » مما يشير الى أن المهراجا قد ولد من جديد من بقرة مقدسة،

وليس من زهرة اللوتس المقدسة • وبعد أن دخل جلالته داخل التجويف التمثال ، مكث بداخله الوقت الذى حدد له ، بينما أخذ الكهنة الذين كلفوا بتأدية الشعائر يصلون مرارا الصلوات المناسبة لذلك •

ويمكننا أن نستدل من هذا الاحتفال الاخير على أن المهراجات قد تحولوا منذ عام ١٨٥٤ م الى الشكل الثانى لشعائر الميلاد الجديد ، وهو الشكل الذى ربما كان أكثر قدسية من الشكل الاول ، ونعنى بذلك الميلاد من البقرة • ففى عام ١٨٦٩م أعلن أن « احتفالا آخر ليس أقل غرابة من الاحتفال الاول يسمى « ارنجا جهربوم » سيقام فى العام القادم ، حيث يمر جلالته (أى المهراجا حاكم ترافانكورى) من خلال بقرة ذهبية تصبح فيما بعد ملكا للكهنة » • ومرة أخرى نقرأ أن المهراجا حاكم « ترافانكورى » ، وهى مقاطعة أهلية تقع فى أقصى جنوب الهند ، قد فرغ منذ حين من اجراء الاحتفال النفيس الثانى والاخير الذى يعرف باسم « المرور خلال البقرة الذهبية » ، ذلك الاحتفال الذى كان يتحتم على المهراجا أن يقوم به لكى يقف على قدم المساواة فى قليل أو كثير مع البرهمانى ، حيث ان المهراجا يرجع فى أصله الى طبقة « سودرا » • ويعرف الاحتفال الاول من هذين الاحتفالين باسم « ثولا بورشا » • وكلمة « ثولا » تالاغة السنسكريتية تعنى الميزان ، كما ان كلمة « بورشا » تعنى الرجل ، وكلمة «دانام» تعنى « منحة ذات طابع دينى » • ويتمثل هذا الاحتفال فى دخول المراجا فى مكان ما ليقف على كفة الميزان ، فيوزن مقابل عملات ذهبية توزع فيما بعد على البراهمة • • أما الاحتفال الثانى فيعرف باسم « هيرانيا جاربهام » • وتعنى كلمة « هيرانيا » السنسكريتية الذهب ، كما تعنى كلمة « جاربهام » الرحم • وجوهر هذا الاحتفال هو المرور من خلال بقرة ذهبية • وهذه البقرة عبارة عن وعاء مصنوع من الذهب ، ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ومحيطه ثمانية أقدام • ويملأ هذا الوعاء حتى نصفه بمزيج يتكون من العناصر التى تتكون منها البقرة ، وعلى هذا المزيج يقوم البراهمة باجراء الطقوس المشروعة

ثم يصعد المهراجا الى قمة الوعاء عن طريق سلم مزين مصنوع لهذا الغرض ثم يغلق عليه الوعاء بينما يتلو البراهمانيون تعاويذهم وأناشيد الفيدا • ويستمر هذا الاجراء مدة عشر دقائق • يخرج بعدها المهراجا من الوعاء وينبطح أمام تمثال اله ملوك « ترافانكورى » •وعند ذلك يأتى الكاهن الكبير ويضع تاج « ترأفانكورى » على رأس المهراجا الذى أصبح مقدسا بعد أن مر خلال البقرة الذهبية • والاحتفال الاول الذى يوزن فيه المهراجا بالذهب يجعله ملائما لأن يقوم بالاحتفال الثانى الذى يعد أكثر تبجيلا وأكثر تكلفة من الاحتفال الاول ، وهو مروره داخل تجويف البقرة الذهبية • وتكاليف هذه الاحتفالات باهظة ففضلا على قيمة الذهب الذى تصنع منه البقرة ، فانه ينفق الكثير من المال على اطعام حشد البراهمة الهائل الذين يجتمعون فى «تريفاندروم» بهذه المناسبة • ويقوم مهراجيو « ترافانكورى » بهذا الاحتفال منذ زمن بعيد لا يذكر على وجه التحديد • ويعد أى اهمال من جانبهم لهذا الاحتفال اساءة لتراث البلد ، الأمر الذى يتطير به الهندوكيون كل التطير » •

على أنه لو اقتصر هذا الاحتفال على هؤلاء القادرين على دفع نفقات البقرة الهائلة المصنوعة ن الذهب ، لانحصرت فكرة التجديد ل طائفة محدودة هى طائفة الأغنياء ، ولحلت بهؤلاء وحدهم البركة عن طريق دخولهم فى تجويف البقرة • ولكن البقرة الحية حلت ، لحسن الحظ ، محل البقرة الذهبية فى شعائر الميلاد الجديد • وبذلك أصبح فى استطاعة الفقير والوضيع أن يقوما بهذه الشعائر ، وبذلك فتحت أبواب الجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلقة دونهم • حقا انه يمكننا أن نفترض بشىء من الثقة ، أن الميلاد الجديد عن طريق البقرة الحية ، كان هو الشكل الأول لهذا الاحتفال ، وأن استبدال البقرة الحية ببقرة مصنوعة من الذهب ، لم يكن سوى استرضاء لكبرياء المراجاه وغيره من كبار رجال القوم الذين ربما حسبوها وصمة فى جبينهم لأن يولدوا كسائر أفراد الشعب من البقرة الحية • ومهما

يكن الأمر ، فانه من المؤكد أن البقرة الحية لا تزال تستخدم فى بعض جهات الهند فى اقامة شعائر الميلاد الجديد • ففى الأقاليم الشمالية الغربية من أحياء الهملايا « يؤدى احتفال الميلاد من فم البقرة عندما يتنبأ الطالع لأحد الأهالى بحدوث جريمة من جانبه أو بحدوث كارثه مفجعة له • وعند ذاك يأتى هذا الشخص ويلبس ملابس ذات لون قرمزى • ويربط فى غربال يمرر بين أرجل البقرة الخلفية حتى أرجلها الأمامية ومنها الى فمها ، ثم يمرر فى الاتجاه المضاد مشيرا بذلك الى عملية الميلاد الجديد • ثم يرش الطفل المصطنع بالماء المقدس ، ويتشمم الأب رائحة ابنه كما تفعل البقرة مع عجلها » • وهنا نلاحظ أنه لما كان من الصعب بالضرورة تمرير الطفل داخل البقرة الحية ، لم يبق سوى تمريره جيئة وذهابا بين أرجل البقرة • وبهذا يصبح الابن مطابقا لابن البقرة ، كما يقوم الأب بدور البقرة نفسها عن طريق تشممه لرئحة ابنه • ومثل هذا يحدث فى الهند الجنوبية عندما يطرد رجل من مجتمعه لسبب قهرى ، فإنه يمكنه أن يعود اله بعد أن يمر عدة مرات تحت بطن البقرة • وعلى الرغم من أن الكاتب الذى دون هذه العادة لم يذكر أنها احتفال بالميلاد الجديد ، فانه يحق لنا أن نعدها كذلك فى ضوء الشواهد السابقة • ومن المحتمل أن اعادة وضع طفل عثر الحظ فى سلة أمام بقرة حلوب يقف بجانبها ابنها ، والسماح للبقرة بأن تلعق الطفل ، يعد اجراء مبسطا للاحتفال الأصلى • « وبذلك تبرح الطفل الصفات الشريرة التى يولد بها عن طريق الوراثة » •

فاذا كان طقس الميلاد من بقرة يمكن أن يتخذ أشكالا مبسطة يصعب علينا تفهم مغزاها ، ما لم يكن لنا علم بتفاصيل الاحتفال الكامل ، فانه لايبدو أنه من غير المحتمل أن تكون كذلك شعائر الميلاد من العنزة مثل تلك الشعائر التى تتبعها قبيلة « أكيكويو » عندما تربط يد الانسان الذى يولد من جديد بجلد هذا الحيوان صورة مصغرة لطقوس كاملة • ويتفق مع هذا الغرض أننا نجد قبيلة « أكيكويو »

تؤدى هذه الشعيرة الأخيرة فى مناسبات مختلفة ، وهى بعينها تؤدى هذا الطقس كاملا فى مناسبات مقدسة .

أليس من الطبيعى بعد ذلك أن نفترض أن الشعوب اختصرت فى زحمة الحياةاليومية التى لم تكن تسمح بالقيام بهذا الاحتفال الشاق وبتفاصيله الدقيقة ، اختصرت هذا العلاج المتحكم فيهم ، الى شكل مبسط مريح يمكن اللجوء اليه دون أن تضطر الى تأجيل ضروريات الحياة الأقل شأنا من هذا الاحتفال ؟ .

خاتمة :

فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها،فإننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه اسحق . تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه ، أو يرغبون فى اتباعه عند ما يفضل الابن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى ما زال على قيد الحياة ؛ تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم ، اما نتيجة حظه العاثر أو بسبب سوء سلوكه . وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبريين كما بسط عند « الاكيكيو » ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى . فاذا كان افتراضنا هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وإن كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه .